إلى جَميع أصدقائِي على مَواقِع السّوشَل ميديا.. وكلِّ من يُتابعُ مَسيرَتي الأدَبيَّة.

الطّبعة الرَقميَّة الأولى، كانون الثاني ٢٠١٨

.

تُـحبُّني أو تكرَهُني، كلاهُما مُفضَّل لدَيَّ:
أذا كنتَ تُحبُّني.. فأنا دائِمًا في قلبِكَ،
وإذا كنتَ تكرَهُني.. فأنا أيضًا في عَقلِك.

وليم شكسبير

الغريبُ ضَعيفٌ..
مَهما حَاولَ أن يَكونَ قويًّا.

سيِّد قطب

أيَّ مَعنًى منَ المَعاني يُمكنُ أن يَتقمَّصَ كلمَةَ: الحَيَاة؟

هلِ الحَياةُ مثلاً تعني الحُرِّيَة؟!

أتُراها تَحقيقٌ لِلذَّات؟!

هلِ الحَيَاةُ هيَ السَّعَادَة؟!

أم انَّها رَدِيفٌ للمُعاناة؟

أو هي تَوَاترُ الاثنَينِ: الفَرَح والألَم.. ومُداوَرَة بَينَهُما؟

ولكنَّ السُّؤال.. فيما لو كانتِ النَّقيضَين معًا.. هل هما مُنسَجمانِ أو مُتخاصِمان مُتصارعان؟ هلِ التّناقضُ الظّاهريُّ هو الذي زَكَّى شَقاءَ الإنسان في هذه الفانيَة؟ هل يُشكِّلُ الفرَحُ والألم وَجهَينِ لعُملةٍ واحِدَةٍ.. أم انَّ واحِدَهما دَخيلٌ على مَلكوتِ الآخر؟ وهلِ الحَيَاةُ حقًّا سعيدَةٌ فيما لو كانتْ خاليةً منَ المُعاناة؟ أو هي بائِسَةٌ كئيبَة فيما لو كانت خاليةً منَ الفرَحِ والمسرَّات؟ لسنا هنا لنطرَحَ بَحثًا فلسفيًّا.. ولكن بالنِّسبَةِ إلى مَنْ خَبِروا الحَياةَ بأبعادِها "الأربَعَة"، أدركوا أنَّ جَوهرَ الحَياة في هذِهِ الثنائيَّةِ المتَّحِدَةِ اتِّحادًا

أقنوميًّا سَرمَديًّا مُتجَسِّداً في يوميَّاتِ الإنسان في سَعيهِ الدّؤوب وراءَ لقمَةِ العيش. الحَياةُ دَمعَةٌ وابتِسَامَة.. بَشَاعَة وَجَمال.. حِرمانٌ فَلَذَّةٌ.. فشَلٌ ثمَّ نَجَاح.. هزيمَةٌ ويَليها انتِصَار. وفي أحيانٍ كثيرَةٍ تكونُ الدَّمعَةُ إسقاطاً للفرَح، وثمَّةَ وَمَضاتُ جَمالٍ في قلبِ البَشاعَة، وهناكَ لذَّةٌ كامِلَة في الحِرمان، ونَجَاحٌ ماردٌ أسيرٌ خائِبٌ في قمقُمِ العَجزِ والقصور! ودائماً أبداً.. لو سبَقَتِ الدَّمعَةُ الابتِسامَةَ تكونُ الابتسَامَة أجمَلَ، والنَّجَاحُ أعظمَ لو سبَقَهُ فشَل، والمُتعَةُ أَلَذَّ بعدَ مَرحَلَةِ الحِرمان. قالبُ الحَلوى فيه قليلٌ من المِلح، والطَّبيخُ المُمَلَّحُ فيه القليلُ منَ السُكَّر.. وهذا يَعني أنَّ كيمياءَ حَلاوَةِ الحَيَاةِ لا تَخلو منَ مُلوحَةِ التَّجَارب، وتَركيبَةَ مُلوحَةِ المُعاناة لا تخلو من سُكَّرِ الانفراجاتِ. وإذاً فالسَّعادةُ والألم هما جَسَدُ ورُوحُ الحَياة.. وتموتُ الحَيَاةُ جسدًا بلا روح أو روحًا بلا جسَد. تمامًا كالضَّوءِ والحرارَة بالنِّسبَةِ إلى الشَّمْس.. فهي ميِّتةٌ لو فقدَتْ ضَوءَها ولا مَعنى لوجودِها لو خسِرَتْ حرارَتَها. الحَياةُ بلا أَلَمٍ مَهزَلَةٌ تافهَة.. وبلا فرَح سَبْيٌ مُزمِن. والذي يشكو أنَّ حَيَاتَهُ شَقيَّة لا بَهجةَ فيها.. لا زالَ مُراهقاً في فهمِهِ الدُّنيا.. ومتى بلغَ النُّضوجَ أدرَكَ الحَقيقَة.

*****

لندن أيلول ٢٠١٦.

"غيث الرَّاسِي ضحيَّة ١٩ تشرين الأوَّل ٢٠١٥؟!"

تمتمَ المُحقِّق شَكيب مْدَوَّر وراءَ السيِّد صَخر. ثمَّ تابعَ وسألَ:

– هذا الفتى اليَتيم بطَلُ الدّراما التي ترويها لي يا صَخر.. هو ابنُ غيث الرَّاسِي الاقتِصَادِيّ المَعروف.. دونجوان ١٩ تشرين الأوَّل ٢٠١٥؟!

ولمْ يترَوَّ ليسمَعَ الجواب.. وتابعَ مُلِحًّا:

– ما اسمُ الفتى اليَتيم يا صَخر ما اسمُه؟ هل هناكَ ما يُثبتُ رَسميًّا ارتباطَهُ بغيث الرَّاسِي؟

فأجابَ صَخر سويدان بعدَ أن رشفَ رشفةً من قهوتِهِ، ومَجَّ مَجَّةً أخيرَةً منَ السِّيكارَة:

– قلتُ لكَ الاسم ليسَ هامًّا الآن. ولكنَّ الدَّليلَ الوَحيد الذي يُثبتُ أبوَّةَ غيث لهذا الفتى اليَتيم هو شَهادَةُ الأمِّ.. والأمّ فقط.

– مَنْ.. تقصُدُ زَوْجَةَ غيث الرَّاسِي؟! سألَ المُحقِّق مُستغربًا.

– لا.. بالتَّأكيد لا. أجابَ صَخر.

– إحدَى عَشيقاتِهِ؟

– قبلَ أن يَتزَوَّج.

كانتْ أسئلةُ المُحقِّق خارجةً عن الاحترافِ والمِهَنيَّة.. بل هيَ أشبه باستفهاماتٍ بريئَةٍ عمياء تُحرِّكُها سَليقةُ النَّزوَةِ الفُضُوليَّة لا أكثر. قالَ صَخر سويدان:

– جئتُكَ لكي أقولَ لكَ كلَّ شَيْء. ولكنَّكَ لنْ تفهَمَ غايَتي إذا قلتُ لكَ الخاتِمَة قبلَ المُقدِّمَة. أنهَيتُ قهوَتي هذه.. وأعتَقِدُ أنَّنا نَحتاجُ لفُنْجانٍ آخر.

فأشارَ المُحَقِّقُ بيَدِهِ إلى النَّادلَ وحَضَر هذا.. فطلبَ منه فُنجانَين آخرَين منَ القهوَة. وقالَ بصَوتٍ خافت:

– في علاقةِ فتاكَ اليَتيم بغَيث الرَّاسي، وكانَ هذا مُفاجئًا لي حقًّا، بدأنا بالاقتراب من "الجَريْمَة" الحَدَث. تابِعْ يا صَخر تابع.

وأشعَلَ صَخر سويدان سيكارةً أخرَى، ثمَّ عادَ يروي حِكايتَهُ للمُحَقِّق شَكيب مْدَوَّر:

– ذاتَ يَوْم.. جَاءَ إلى مَيتَمِ راهباتِ العازَاريَّة رَجُلٌ طيِّب.. ولن أقولَ لكَ ما اسمُهُ وما هيَ مِهنتُهُ الآن.. وأرادَ هذا أنْ يَرَى الأولادَ ليَختارَ واحِدًا يَتبنَّاه. فرَحَّبَتِ المُديرَةُ بهِ، وسَارا بجَولةٍ في أرجاءِ المَيتَم. وسَافرَ ناظراهُ في وُجُوهِ وعيونِ الصِّبيانِ اللاَّهينَ في الباحَةِ من أعمارٍ شتَّى. وعندَما جلسَا إلى الطّاولةِ في غرفةِ الطَّعام ليشرَبا القهوَة.. رَأى الفتى اليَتيْمَ مَوضُوعَ حَديثِنا داخِلاً معَ رفاقِه ليتناولوا وَجبَةَ الغَدَاء.. فارتاحَ له.. بل أحَبَّهُ منذ النَّظرَةِ الأولى! الفتى اليَتيم ديناميكيٌّ لطيفٌ وَذَكِيّ، والشَّغَفُ البارقُ في مُقلتَيه كأنَّه مغناطيس جاذب. كاريزما مؤثِّرَة. قالَ الرَّجُلُ للمُديرَة:

– لقد أحبَبْتُ هذا الصَّبيَّ "الورِش". حَدِّثيني عنهُ.. واضح أنَّه منَ الناحيَة الجَسَديَّة لا يشكو من مَرَض.

– بلى صِحَّتُه مُمتازَة! قالت المُديرَة ثمَّ أضافت سؤالاً:

– سيعيشُ مَعَكَ في البَيت حتمًا؟

وأجابَها الرَّجُل بالإيجاب. وسألتِ المُديرَةُ ثانيةً:

– وَأنتَ متزوِّج؟ وأجابَها:

– بلى. وسألتِ المُديرَة أيضًا:

– ألن تأتِيَ زَوجتُكَ لِتشاركَكَ في الاختِيار؟ رأيُ الزَّوجَةِ هامّ في هذه المسألة.

– بلى.. ستأتي معي في المَرَّةِ القادمَة. وصَمَتَ لثوانٍ، ثمَّ قال:

– في الحَقيقَة زوجَتي ليستْ متحمِّسَة كثيراً لفكرةِ التبنِّي هذه. ولكنّي أعتقِدُ أنَّها ستُذعِنُ في نهايةِ المَطاف. فقالتِ المُديرَة للرَّجُل:

– حادِثِ الصَّبيَّ.. فإذا لمْ يُحبَّكَ لنْ يَذهبَ معَكَ. وأنا لا أرغِمُهُ على شَيْء.

كانَ واضِحاً أنَّ الرَّجُلَ الطيِّبَ لا يُريدُ أن يتبنَّى طِفلاً.. صبيًّا رَضيعًا مثلاً.. زَوْجتُهُ لم تكنْ تُريدُ التّبَنِّي، لم يُرْزَقا أولادًا طوالَ سَنَواتِ زواجِهما، وهوَ المُبادرُ بالفكرَةِ أوَّلاً ثمَّ عادَتْ زَوْجتُهُ بَعدَ ذلِكَ ولحِقَتْ بهِ. بيدَ أنَّ الفتى اليَتيمَ لم يَقتَنِع بمُغادَرَةِ المَيتَم والذَّهابِ معَ والِديهِ الجَدِيدَين إلاَّ بَعدَ شَهرٍ منَ الزَّمَان. والمُحاولاتُ الحَثيثَةُ من المُديرَة كانَتْ توابلَ لإنضَاجِ الطَّبخَةِ في دِماغِ الولَد. فقد جاءَتْ إليه ذاتَ مَسَاءٍ، وأثناءَ تناولِ وَجبَةِ العِشاء، وجلسَت معه إلى طاولةٍ واحِدَة، وقالتْ له:

– هذا حُلُم.. ألا تَرَى؟! حلُم بالنِّسبَةِ إلى أيِّ واحدٍ منكم هنا. وحُلمُكَ أنتَ صارَحقيقة!!

فأجابَها الصَّبِيُّ وعَيناهُ تغرورِقان:

– ولكنَّ والِدي هو غيث الرَّاسِي!

فسَألته مُستَغربةً:

– مَن غيث الرَّاسِي؟! أنا لمْ اسمَعْ بهذا الاسم!! فأجابَها وهو يَمسَحُ مآقيه:

– وفاء قالت لي هذا قبلَ أن تركَتني وذهَبَتْ إلى السَّمَاء.. وقد كتبَتْ لي هذا الاسم على ورَقةِ غلافِ الإنجيل الذي أعطتْنِي إيَّاه.

فقالتِ المُديرَةُ عندئذٍ بهُدُوء:

– حتى ولو كانَ غيث الرَّاسِي هذا أباك فهو لا يَهْتمُّ لأمرِكَ.. أينَ هوَ؟ إنَّهُ لا يسألُ عنك.. وهو بالتّأكيد لا يُريدُك. وهناكَ بالمُقابل رَجُلٌ طيِّبٌ أحبَّكَ ويُريدُ أن يَعتنيَ بكَ ويصيرَ أباك. وسوفَ يَهتمُّ بأمورِك كما نحن وأكثر.. وسَيَكونُ لكَ أفضَلَ بكثير من غيثِكَ هذا.

وأخَذتْهُ بينَ ذِراعَيْها وكفكفَتْ دُموعَه.

كانتْ كلمَاتُ المُديرَةِ قويَّةً مُقنِعَةً، لم يَحْرِ الصَّبيُّ إزاءَها جوابًا. وتسلَّلَتِ الطّمأنينةُ إلى قلبِهِ معَ دِفءِ النَّسماتِ التي حرَّكَها شِراعُ الأمَلِ المَنشود.. خصوصًا بعدَ حادثةِ دوري التي جعَلَتْهُ ينظرُ إلى "العالمِ الخارجِيّ" كأنَّهُ تِيْهٌ أجرَدُ لا إنسَ فيه ولا جنّ بالمُقارنة معَ نَعيمِ المَيْتَم. ثمَّ عادَ وَجاءَ الرَّجُلُ الطيِّبُ مرَّةً أخرى ومعَهُ زَوجتُهُ المتأنِّقَة، والتي تُشبهُ في مَظهرِها وفاءَ في وَجهٍ منَ الوُجوه، وأحضرَا له بعضَ الأطعِمَةِ والحَلاوينَ وتحادثا معَه طويلاً، وأمضَيا برفقتِهِ النَّهارَ كلَّه حتى أنِسَتْ رُوْحُهُ بهما، وأذعَنَ لِحَظِّهِ وما خَطَّهُ لهُ المَكتوبُ من قَدَرٍ في هذه الحياة. بيدَ أنَّ غيث الرَّاسِي سيبقى صورةً هُيوليَّةً تُلوِّنُ وتُزَخرفُ ملامِحَها فُرشاةُ الرَّجَاءِ المُستحيل، وتَعويذةً.. أو بالحَريّ "ذَخيرَةً" منثورَةً من ماضٍ مُدَمَّر.. مَدفونةً في زِقِّ خَيالِهِ ليَستحضرَها في مَوعِدِها، ويسألَها عن مَحلِّها منَ الإعرابِ في صَرْفِ مُعاناتِهِ ونَحْوِها.

كانَ ذلكَ اليَوم مُشمِساً عندَما غادرَ المَيْتَم ورَحَل إلى عالمِهِ الجَديد.. إلى عائلتِهِ الجَديدَة. دَفنَ يَوميَّاتِ "لوجِسْتيَّاتِهِ" في حَقيبتَين واحِدَة كبيرَة وأخرى صَغيرَة.. ثمَّ خرَجَ يُودِّعُ رفاقَهُ الأولادَ واحِدًا واحِدًا مُنتَقِلاً من غرفةٍ إلى أخرَى.. خصوصاً صديقَه دوري.

وعندَما دَنا هو ووالِدُه الجديد الرَّجُلُ الطيِّب من البَوَّابةِ الرَّئيسيَّة يَهمَّانِ بالخروج ومغادَرَةِ المَيتَم.. وَثَبَ الصِّبيانُ إليهما من فُتُحَاتِ البناءِ.. كأنَّهم زَوَاحِفُ صَغيرَةٌ خَرَجَتْ من جُحُورِها في يَومٍ رَبيعيٍّ صَاحٍ.. وعانقوه طويلاً.. بعضُهم باكٍ وبعضٌ ضاحك.. وقالوا له بصَوتٍ عالٍ:

– لا تنسَنا يا... عُدْ إلينا وزُرْنا متى سنَحَتْ لكَ الفرصَة.. ستَبْقى دائِمًا بَينَنا ولن ننساكَ ما حَيينا.

فقاطعَ المُحقِّقُ كلامَ صَخر:

– لا زلتَ تتَحامى ذِكرَ الأسماء.. معَ انَّكَ ستقولُها لي في النِّهاية.

فهَزَّ صَخر رأسَه موافِقًا على ما قالَ المُحقِّق شَكيب، وتابع:

وهكذا أقلَعَتِ المَرْحَلَةُ الجَدِيدَةُ من حَيَاةِ هذا الصَّبيِّ اليَتِيم.. إنَّها المُراهقةُ الأولى. لقد عاملَهُ والدُه الجَديد بمَثابةِ ابن، لقد أحبَّهُ وتأثَّرَ بهِ أيضًا! أعطاهُ اسمَهُ وَسَجَّلَهُ في دائِرَةِ النُّفوس ابنًا له، وفرَّغَ له غرفةً في منزلِهِ المُنفرِدِ الفَسيح في ظاهرِ المحلَّة، ثمَّ أدخلَهُ أخيرًا إلى إحدَى المَدارسِ القريبَةِ ليُتابعَ تَحصيلَهُ العِلميّ. ورَاقَ لِلزَّوجَةِ كثيراً أنْ تكونَ طقوسُ المَيتَم قد صَبَّتْ شَخصيَّةَ الصَّبيِّ في قوالبِ الانضباطِيَّاتِ واحترامِ المَوَاقيت.. زائِد درجة عاليَة من التَّرتيبِ "لِيَوميَّاتِهِ اللّوجِسْتيَّة". ومعَ أنَّ والدَيهِ الجَديدَين طلبا منه أنْ يناديَهُما بـــ "أبي" و"أمّي"، وهذا ما اعتادَهُ بسُرعَة! إلاَّ انَّه لم يَشعُرْ بارتياحٍ نفسِيٍّ وسعادَةٍ بغير دُخولِهِ إلى المَدرَسَة. فهناكَ وَجَدَ لهُ "مَيْتَمًا" آخَرَ! قانونًا.. أوامِرَ.. طاعَةً.. نِظامًا.. وأولادًا مِنْ كلِّ الأعمار وألعابًا ونشاطاتٍ شَتّى. فشكَّلَتِ المَدرسَةُ في زَمَنٍ قليلٍ أُسرَتَهُ الحَقيقيَّة التي شَغَفَهُ هواها. في البيت كانَ يشعرُ بمَحبَّةٍ واهتمامٍ يَنقصُهما شيءٌ يَجهلُ ما هو.. كأنَّ مَحبَّتَهُما، معَ كونِها باذلةً، إن هيَ إلاَّ فِعْلٌ إراديٌّ خالٍ منَ التَّتبيلةِ المَشَاعريَّةِ التي تجعلُ البَذلَ ذا نَكهَةٍ استِثنائيَّة. وأمّا في المَدرَسَةِ فكانَ الفتى يَشعُرُ بحُبٍّ صادقٍ قويٍّ من قبَلِ رفاقِهِ التَّلامذَة.. مثل سمَكةٍ في الماء! وهكذا انتهَى العامُ الأوَّلُ ناجحًا مُرتَقِيًا. وكانَ له فرصَةٌ جَميلةٌ في الصَّيفِ أن يَقضِيَ أسبوعَين في مُخيَّمٍ كَشفِيٍّ في تِلالِ فَقرَا السَّاحِرَة.

إلى أن جاءَ ذلِكَ اليَومُ المَشؤُوم!

لم يَكنِ الفتى المُراهِقُ ليَفهَمَ في لُعَبِ الكِبار، ومناوَرَاتِهم، ولا حتى غَدرِهِمْ وخياناتِهم. لم يُدركْ في البدايَة أنَّ رمالاً مُتحرِّكَة تَحيقُ بهذا البيت. وأراحَهُ هو الآخر أن يرَى تقاطُعًا ما وَشَبَهًا بينَ وفاء ورَبَّةِ هذا البيت والدَتِهِ الجَديدَة.. الاثنتان تتبَرَّجان، الاثنَتان تتَعَطَّران، الاثنَتان مُتصَابيتان، والاثنَتَان جَميلتان! وعادةً في مرحلةِ المُراهقة الأولى تتَفَتَّقُ شَرنَقَةُ الوَعيِ على وجودِ الجنس في حَيَاةِ الإنسان.. ولو انَّهُ وَعيٌ ضَبَابيّ.. هيُوليّ! إلاَّ انَّه يبقى مُتخلِّفًا عن مواكبَةِ رُموزِ اللُّغَةِ الغَزَليَّة، وذلِكَ التَّنادي الصَّامِت الذي يعبُرُ، كأنَّه الكهرُباء غيرُ مَرئيٍّ، في تَراسُلاتِ العيُونِ والتَّلميحاتِ ونَبرَةِ الصَّوتِ وحرَكاتِ الرَّأسِ وَبعض الأطراف بينَ الأنثى والذَّكر الآدَمِيَّيْن. لاحظَ الفتى أنَّ هناكَ بُخلاً وَشِحًّا في المُوَدَّةِ بينَ ذَويهِ الجَديدَين، مُفرداتُ المَحبَّةِ والاطراء والتَّشجيع واللُّطف شبهُ مَعدومَة، وعَينا الرَّجُلِ الطيِّب تأبيان أن تلفُظا الكآبةَ التي تَتلوَّنانِ بها! في حين أنَّ زَوجتَهُ تتجلَّى في أبهَى عَبَاآتِ سِحْرِها وتألُّقِها وجاذبيَّتِها عندَ مَقدَمِ ذلكَ الرَّجُل المتأنِّق في سيَّارَتِهِ الجاغوار.. السِّيكار بيُسراهُ والسُّبحَةُ بيُمناه، ليستَ سُبحَةَ العِبادَة بل سُبحَة الدّونجوانيَّة، وعِطرُهُ الرَّجوليُّ الفرنسيّ (آزارو) سابحٌ حواليه كأنَّهُ هالةٌ منَ القداسَةِ تحفظُ عِصمتَهُ الدَّائمَة منَ التَلوُّث! يركنُ السيَّارَة وراءَ الجِدارِ تحتَ الشَّجَرَة، متوَهِّمًا أنَّهُ نأى بنفسِهِ عن فُضوليَّةِ الأعيُنِ والألسُنِ.. هاتين الحاسَّتين التي لا يرويهُما غيرُ الحِكاياتِ الطّريفةِ المُشوِّقَة، ولو على حِسابِ دمارِ حياةِ أبطالِها. كانَ والدا الفتى الحَديثَين يُظهران الحَفاوَةَ بالوافِدِ الجَريءِ الثَّريّ ويُحسنان الضِّيافة جيِّدًا.. بحيثُ يوفِّرانِ له أفضَلَ وَقتِ لذَّةٍ وكَيْفٍ مُمكنٍ. ويبقى هذا "الضَّيفُ الثَّقيل" ساهرًا عندَهما حتى منتصَفِ اللَّيل.. يتسامرون وهم يشاهدون التِّلفاز ويشربون القهوَة وأحيانًا يتناولونَ المازَةَ معَ كأس ويسكي أو عرَق. لم يكن الصَّبيُّ يبقى ساهرًا معَهم.. ولكنَّ السَّمَرَ والضِّحكاتِ المُدوِّيَةَ أشباحٌ مُؤرقَة تخترقُ جدارَ غُرفتِهِ لتسلبَهُ هدوءَ نَومتِهِ.

وفي تِلكَ اللّيلة.. عندَما سلَّمَ عَينَيهِ لأنامِلِ الرُّقادِ تُطبقُهما بهُدوء، وكانت سَهرةُ الثَّلاثةِ في البَهوِ صاخبَةً، ثمَّ بدأَ ضَجيجُ المَرَحِ يَخفتُ شيئًا فشيئًا، شعرَ الوَلدُ المُتبَنَّى كأنَّ الزّائرَ المتأنِّقَ قد غادرَ البيت وانتهَى كلُّ شَيْء، والوقتُ وَقتُ المُضيِّ إلى العُمق. فجأةً! يعلو

صَخبٌ ذو نكهَةٍ غيرِها أثناءَ وجودِ الضَّيف.. جدَلٌ أو شِجارٌ بَينَ الزَّوج والزَّوجَة.. والتهَبَ الكلامُ واشتَعَل.. وفضَحَ المَستور. صاحَ الزَّوْجُ أوَّلاً بزَوجَتِهِ:

– متى تنتهي هذِه المَهزَلَة يا دَلال.. متى؟ وأجابتْ دلال من فورِها:

– ألم نتَّفِقْ على هذا؟ أتُراكَ نسيت؟ لماذا تعودُ إلى الموضوعِ نفسِهِ من وقتٍ لآخَر؟!

فتَزدادُ نبرَةُ صوتِهِ غضبًا:

– أنا رَجُلُ هذا البَيت يا حُرمَه.. أينَ كرامَتي.. شَرَفي.. سُمْعَتي؟! مَرَّغتِ رأسِي في الوَحل.

فأجَابتْهُ وقد ارتفعَ صوتُها بالصُّراخ غيرَ عابئَةٍ بالولَدِ النّائِمِ في الغرفة:

– لا تتَنَمَّر.. أنتَ لسْتَ رَجُلاً يا هذا.. وأنا امرأة ولي احتياجاتي.. لا تحمِّلني وَحدي المَسؤُوليَّة. وغسَّان الجُردي كريمٌ معنا كثيرًا، وأنتَ أدرى بأنَّنا مَديونانِ لهُ بالكثير، وهو أيضًا مصدرُ هذه البَحبوحَة التي نعيشُ فيها الآن. أم انَّ يَقظةَ الرَّجولةِ المِزاجيَّةَ عندَكَ أنسَتْكَ كلَّ هذا.

وَخرَجَ الرَّجُلُ عن طَورِهِ وصاحَ في وَجهِها:

– كفى يا ابنة هيك وهيك.. كفى! هل هذا بَيت أم ماخور!! لا شرَفَ عندَكِ ولا وجدانَ ولا ضَمير. ألا تخشَينَ ربَّنا.. لو تَسمَعينَ قِصَّتَنا على ألسِنَةِ النّاس؟ الله أعلمُ ماذا تحيكُ مُخيِّلتُهم عنكِ وعن غسّان الجُردي. إنَّهُ لا يأتي لكي يُحادِثَني في السّياسَةِ او الاقتِصاد.. فأنا لستُ مستشارَه السّياسيَّ والاقتِصاديّ.. أنا هذا الموظَّفُ الخادم البَسيط عندَه.. بل أنا مَمسَحَتُهُ.. أنا نكِرَه في نظرِهِ.. حشَرَة.. وفي نظرِكِ أنتِ أيضًا. ستندَمينَ يا دلال على كلِّ هذا، أقسِمُ بأنَّكِ ستَندَمين.

فقالت له.. كأنَّ الاهتمامَ استيقظَ فجأةً في دِماغِها:

– أخفِضْ صوتَكَ.. الصَّبيُّ نائِمٌ!

فقالَ لها بصَوتٍ خافت:

– لقد وَعَدْتِني أن تتوَقَّفي من أجل الولَد.. ابنِنا الجَديد لا يجوز أن نربِّيَ الصَّبيّ وسطَ هذه القذارَة.. المَيتَم خَيرٌ له من حياتِنا البائِسَةِ هذه.

وهكذا هي وَتيرَةُ الشِّجاراتِ بَينَ الزَّوْجَين منذ أشهُر قليلة. بيدَ أنَّ الشِّجارَ الأخير كانَ الأعنف من حيث الصِّياح بينهما. فنهضَ اليَتيمُ واقترَبَ من الباب يسترقُ السَّمَع، وسمِعَ الجدَلَ كلَّه بينَ الزَّوجَين. لقد كانَ الرَّجُلُ يتوقَّع أن ينتهيَ ما يَحدثُ بينَ زَوجتِهِ وغسّان الجُردي في بيتِهِ قريبًا.. بحسَبِ الاتِّفاق بينَهما. وربَّما أرادَ الولَدَ لكي يُنهيَ المأساة! بيدَ أنَّ إلحاحات الزَّائِر المُتأنِّق لم تحسِبْ حِسَابَ ضَيفٍ صَغيرٍ جَديد وزائِرٍ غريمٍ له دائِمٍ في البيت. لقد رأى الزّائِرُ الثَّريُّ الولَدَ معَ سائِقِهِ ولم يكترثْ في البدايَة. كانَ اللّقاءُ بينَ السِّياسِيِّ العاشِق وزَوجةِ سَائِقِهِ قبلَ شهورٍ في قبوٍ من أقبيَةِ لذَّتِهِ السِّريَّة، ولكنَّ وقاحتَهُ تجاوزت الخطوطَ والموانعَ والسِّياجاتِ كلَّها.. فتَجَاسَرَ ودخلَ منزلَ سائِقِهِ.. وسائِقُهُ بدَورِه يُخلي له السَّاحَةَ ليُضيفَ "مأثرَةً وَطنيَّةً" جديدَةً إلى مآثرِهِ الكثيرَةِ فوقَ مَضجَعِ زَوجتِهِ المَصون.

وذاتَ يَوم.. لم يَستطِعِ الرَّجُلُ الطيِّبُ أخذَ مُتبنَّاه في نُزهةٍ خارجَ المنزل، كما دائِمًا، فقالَ له وكانَ وَجهُهُ كمِدًا مُكفهِرًّا:

– إصعَدْ هذه الليلة ونَمْ على السَّطح.. أطِعني يا ابني. أنا ذاهبٌ لبَعضِ الوَقت ومتى عُدتُ أناديك. فأذعنَ الولَدُ.. ولكنَّه في هذه المرَّة أرادَ ان يكتشفَ سِرَّ هذه الخلوات الغامضَة بينَ السِّياسِيِّ وزَوجةِ السَّائِق، معَ أنَّ حَدسَهُ الفِطريَّ أنبَأهُ بالحَقيقَة. حملَ فرشتَهُ وصعَدَ إلى السّطح متظاهرًا بالخضوع.. ثمَّ راحَ من على السَّطحِ يُراقبُ الدَّرْبَ منَ مَفرقِ محطَّةِ البنزين حتى اختفائِها بينَ الدَّوحاتِ الوارفة ثمَّ ظهورِها ثانية بينَ الأبنيَةِ النّموذَجيَّةِ حتى مَدخلِ البيت. وحوالي السّاعة التّاسِعَة رأى مِصباحَي سيّارةٍ مُقبلَين.. ولم يتأكّد أنَّها الجاغوار إلاّ بخروجِها من بينِ الدَّوحات الكبيرَة. ورأى السِّياسيَّ المُتأنِّقَ غسّان الجُردي يَركنُ سيَّارَتَه تحتَ الشَّجرَة وراءَ الجِدار العَتيق، فلا يراها العابرون على الطريقِ الفوقِيّ المُحاذي للحَديقة. الأدواتُ نفسُها.. السّيكارُ والسُّبحَةُ والعِطر! يصعد الدَّرجاتِ الخمس ويقرعُ الباب وتفتحُ له دلال. وقبَعَ الولدُ في مكانِهِ زُهاءَ ساعةٍ منَ الزَّمان.. وعادَ ثانيةً وراقبَ المَدخلَ من على السَّطح.. وتأكَّدَ من

أنَّ أباه لم يأتِ بعدُ.. فهمَسَ له الشّيطان أن ينزلَ ليُشاهدَ بَعضًا من أحداثِ هذه الدّراما المُزمنة التي يعيشُها الرَّجُلُ الطيِّبُ الذي أحبَّهُ وأعطاهُ اسمَه. نزلَ من السَّطح على رؤوسِ أصابعِ رجليه. عرفَ انَّهُ لا يستطيع أن يدخلَ منَ البابِ الرَّئيسيِّ في بَيْتِ الدَّرَج. فدارَ حولَ البيتَ وقفزَ إلى شُرفةِ المَطبَخ المَسقوفةِ بالأغصانِ الوارفة.. وسَحَبَ زُجاجَ البابِ وصَارَ داخِلَ البيت! سَمِعَ جَلَبةً في غرفةِ النَّوم.. فاقترَبَ في المَمشى أكثر فأكثر فسَمِعَ بوُضُوحٍ صُراخَاتِ اللذَّةِ المُلتهبَة.. خُوارَ الرُّجولةِ مَتداخلاً بالأنينِ الأنثوي في انسِجامٍ تامّ.. إنَّهُ تداخلُ وتوزيعُ الأصواتِ في أوركسترا الجنس. أدركَ الولدُ عندَها أنَّ هذا البيتَ مُضطرب والزَّوجة تخونُ زَوجَها بحُريَّةٍ كاملة. وعندما كانَ يثبُ من على الشُّرفةِ ليعودَ إلى السَّطح.. وَصلَتْ سيّارةُ أبيهِ ومصابيحُها العاليَة تضربُهُ وهو يقفزُ كأنَّهُ لِصّ. وقفَ مكانَهُ خارجَ الشُّرفة.. واقتربَ الرَّجُل وأماراتُ الغَضَبِ في عَينَيه، وسألَه:

– أينَ كنتَ يا ولَد؟ ألم تكن نائِمًا على السَّطح كما قلتُ لك؟

فلم ينبُسِ الفتى ببنتِ شفَة. فصَاحَ بهِ:

– قل لي ماذا كنتَ تفعل هنا.. ماذا رأيتَ؟! تكلَّمْ.

فأجابَ الفتى مُرتبكًا:

– صدِّقني يا أبي.. لم أرَ شيئاً.. كنتُ عطشانَ فنزلتُ لأشربَ قليلاً من الماء.

ولكنَّ الصَّبِيَّ أدركَ أنَّ صراعَ هذين الزَّوجَين لن يُعفيَهُ من تشظّياتٍ مؤذيَةٍ مُحتمَلَة.. فعزَمَ على الرَّحيل.

فقالَ المُحقِّقُ شَكيب مُدَوَّر عندئذٍ لصَخر:

– الآن بدأتْ حكايتُكَ تأخذُني إلى حيث تُريدُني أنت.